حوليات جامعة الجزائر2

مجلة علمية أكاديمية دولية

الدلالة الإيحائية للفضاء المكاني في شعر بدر شاكر السياب (نماذج تحليلية)

The suggestive connotation of spatial space in The poetry of bader shaker al-sayab (Analytical models)

د/سهير طعابة

souhair taaba

مخبر علوم اللسان (الجزائر)

taaba88@gmail.com

الارسال: 21/08/15 القبول :21/09/28 النشر:21/12/12 المرسل: سهير طعابة

الملخص: مهدف هذا البحث إلى دراسة الفضاء المكاني وأبعاده الدلالية في شعر بدر شاكر السياب ، لما لهذا الشاعر مع غيره من الرواد في إنجاز عملية التحويل التدريجي والتراكمي التي أدت إلى انفتاح القصيدة العربية على إمكانات لا حدود لها ، وقد استغل السياب ما أمكنه من طاقات اللغة و الإيحاء . وقد برع في استغلال " دلالات الفضاء المكاني " بشكل لافت .انضوى تحت هذا البحث تمهيد حول مفهوم المكان وشعريته ثم وقفة مع حياة السياب وأهم مراحله الشعرية ومكانته في الشعر العربي الحديث والمعاصر . وفي الجزء الثاني من البحث تناولنا أبرز الأبعاد الدلالية التي سعى إليها السياب من خلال توظيفه للمكان في شعره بطريقة رامزة إيحائية وكانت العينات من أشهر القصائد لديه هي : المومس العمياء – سوق القرية – عرس في القرية – غريب على الخليج وفي المغرب العربي ، وبعض قصائد جيكور .

الكلمات الدالة: البعد الإنساني – البعد النفسي – البعد الاجتماعي – البعد القومي.

Abstract

This research aims to study the suggestive connotation of spatial space in the poetry of bader shaker al-sayab, when this poets with other pioneers , accomplished the process of gradual and cumulative transformation that led to the opening of the arabic poem to boundless possibilities .

this samples became the most famous poemswere :The blind prostitute , the village market , a wedding in the village , a stravge in the gulf , and in the maghreb , and some of jekor's poems .

The most important semantic dimensions are the human dimension , the psychological dimension , the social dimension , and the nation dimension .

As for the approach used , it was the descriptive and analytic approach

Keywords The human dimension – the psychological dimension – the social dimension – the national dimension.

مقدمة:

كان شعر السياب نقطة تحول أساسية في الشعر العربي الحديث إذ استطاع أن يصل بالقصيدة العربية إلى آفاق الحداثة والمعاصرة ومراعاة المحافظة على الأصـالة بالارتباط بالتراث وفي الوقـت نفسه الانفتـاح على الثقافات المعاصرة الأخرى للإفادة منها

و القدرة على صهر ذلك في تجربة خاصة و فريدة أصيلة و معاصرة و بذلك شكل ظاهرة فريدة في شعرنا العربي الحديث.

وقد تجلى الفضاء المكاني المكتنز بالدلالات الايحائية في نتاجه الشعري بطريقة فنية لافتة ومؤثرة .

1- مفهوم المكان:

أ- لغة: المكان جمع أمكنة وأمكن ، أماكن : الموضع وهو مفعل من الكون ، يقال هذا من العلم بمكان أي له فيه مقدرة ومنزلة ويقال هذا مكان هذا أي بدله [1] والمكان اسم مشتق يدل على ذاته أي ينطوي معناه على اشارة دلالية ممتلئة تحيل الى شيء محجم ماثل ومحدد له أبعاده ومواصفاته ولفظة المكان مصدر لفعل الكينونة، والكينونة هي الخلق الموجود و الماثل للعيان الذي يمكن تحسسه و لمسه [2]

ب- اصطلاحا: لقي المكان كمفهوم ومصطلح اهتماما من شتى المجالات كالفلسفة و الفيزياء و الادب وغيها من العلوم وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على مدى وعي الانسان بأهمية المكان (والمكان عند أفلاطون (348-428قم) يعد حاويا وقابلا للشيء[3] وعند أرسطو (يمثل السطح الباطن المماس للجسم المحوي ، وهـو على نوعين : خاص، فلكل جسم مكتن يشغله ، ومشترك يوجد فيه جسمان أو أ أكثر) [4]

وجاء في كتاب التعريفات للجرجاني (المكان عند الفلاسفة هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي ، وعند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه ابعاده) [5]

2 -شعرية المكان :

حظي المكان بمكانة مرموقة وبارزة في الشعر العربي منذ القديم ن بداية بشغف الشاعر الجاهلي بالأطلال مرورا بالعصور اللاحقة وافتنان شعراء الأندلس بالطبيعة والتعلق بالمدن وصوى إلى الشعر الحديث والمعاصر حيث اكتسب المكان شحنات دلالية مركزة ومعمقة في الوقت ذاته ذلك أن (شعرية المكان ليست محصورة في المكان وحده، بل باتصاله القوي بخبرة الشاعر ورؤيته فيه) [6]

وما يكسب المكان أهمية خاصة في الشعر هو كونه يقع بين زاويتين هما: زاوية التشكيل الشعري ، وزاوية التأويل فالزاوية الأولى

تتعلق برؤيا الشاعر التي تمنح البعد التأثيري والجمالي و الزاوية الثانية يكون لإحساس المتلقي وذوقه النقدي أثر أيضا، وبهذا يكون المكان المدمج في بنية القصيدة منفتحا على عالم التخييل عند المتلقي [7]

ويمكن النظر إلى المكان من خلال أبداع الشاعر وكيفية رؤيته للمكان وما يمثله ذلك المكان من خصوصية بالنسبة له ، فبعض المبدعين رأى المكان بواقعيته وبعضهم رآه من منظور رومانسي ، وبعضهم رآهم من زاوية التاريخ والتراث ، وبعضهم الآخر عبر عنه بالفقد والفقدان ولذلك أصبح المكان وعاء للتعبير عن هواجس الفنان ورؤاه وميدانا فسيحا لتأملاته وهيامه .[8]

وقد وظف شعراء العصر الحديث المكان المطلق والمكان النسبي في شعرهم بذكرهم للأوطان والظروف التي تحل في واقعهم من أحزان و أفراح وحروب ومصاعب وتشرد وتمرد وغيرها من تشعبات الحياة بكل أنواعها .[9]

وقبل أن نتعرف على تجربة السياب مع المكان نتعرف على المسيرة الشعرية لديه

4 - مراحل المسيرة الشعرية عند السياب :

ينبع شعر السياب من مصدرين : من ذاته ومن وطنه ، ولعل حياة السياب الشعرية كانت تعبيرا عن ذات السياب الصغرى (الأنا)

بذاته الكبرى الوطن،علاقة الفرد بالجماعة ،علاقة الأني بالتاريخي،وقد أسهم شعره في خلق هذه العلاقة واحتضانها إلى حد كبير. [10]

وقد قسم النقاد مسيرته الشعرية إلى أربع مراحل :

* **المرحلة الأولى :** الرومانسية من 1943 – 1948 : إن الرومانسية التي عاشها بدر استمدها من واقعه وظروفه كما تعرف إليها كذلك من دراسته للشعر والأدب الانجليزي .

* **المرحلة الثانية :** الواقعية من 1949 – 1955 : بعد أن انضم السياب إلى الحزب الشيوعي ، لقي الاضطهاد والتشرد بسبب ذلك وقد أثرت فيه هذه التجربة ، بحيث تحول إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة ، كان الموت ، فيما مضى

موته وموت أمه ، أما الآن فقد أصبح الموت عامة ، موت الآخرين كان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده ، أما الآن فقد أصبح

يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين ، أدرك في هذه المرحلة أن فاجعته ليست فاجعته الخاصة ، بل فاجعة شعبه.[11]

* **المرحلة التموزية أو الأسطورية :** تجاوز الشاعر الرومانسية وتجاوز الواقعية الاشتراكية ، وانتقل إلى استخدام الأسطورة والرمـز في شعره . كان الموت في المرحلة السابقة حادثة ، وكان الجوع ظاهرة ، وكان النضال رجولة . أما في هذه المرحلة فقد تحول الموت إلى أسطورة يتمثل بالمسيح وتموز .

وفي شعر هذه المرحلة ، يحاول بعث قريته جيكور ، التي تصبح رمزا للوطن ، وفيها يبلغ أوجه شعره ، كما يظهر تأثره بالشاعر

تي ، س .اليوت **t.s .eliot** [12]

* **المرحلة الذاتية :** هي المرحلة الأخيرة في حياته ، خيم فيها شبح الموت على الشاعر ، فقد أقعده المرض ، ولكنه ظل ينضم الشعر ، فكأنه في سباق مع الزمن ، ليقول كل ما أراد أن يقوله قبل أن يسكته الموت . [13]

وهذه المراحل قد تتداخل في شعره أحيانا من ناحية الخصاص الفنية الا أنه من الواضح في محلة تبدأ من أول العقد الخامس وحتى مطلع العقد السادس من هذا القرن يظهر انفصام في نفس الشاعر بين الذاتية و الموضوعية ، انها المرحلة الأولى ثم تلتحق ذات الشاعر بعراقه ليتحدا في تجربة حميمة اذ ينتمي السياب الى العراق ويرى من خلاله ذاته ، ويستقي منه هوية تلك الذات وهذه المرحلة الثانية ، ثم في المرحلة الثالثة تتحرك هذه العلاقة الوثيقة باتجاه آخر حين يعيش السياب تجارب العراق في جسده الذي يواجه الموت.[14]

5- **السياب و تجربة المكان:**

إن استعمال المكان في الشعر العربي المعاصر مر بمراحل و انتقالات فهو في القصيدة الجاهلية كان اشارة الى نمط حياة ويحمل دلالات انسانية وفي المدرسة الاحيائية كان يتخذه مناسبة للاعتبار من حكم الزمن و تقلبات الدهر أما في المدرسة الرومنسية فقد كان مشحونا بالأحاسيس و الانفعالات و الافكار الرومنسية والمشاعر الذاتية أما الشعر المعاصر لا سيما عند الرواد فقد امتزج الذاتي بالموضوعي و الداخلي بالخارجي بشكل واضح.[15]

والسياب عندما يستعمل الفضاء المكاني لا يكون استعمالا سطحيا أ عابرا أو لمجرد الوصف وانما يكون استعمالا رمزيا معبأ بدلالات ذات أبعاد متنوعة و متفاوتة من حيث الايجابية و السلبية ، بحسب السياق الذي ترد فيه ولعله من أبرز الأماكن التي غدت رموزا شديدة الوضوح في شعر بدر هي : جيكور- بويب – القرية - المدينة -العراق -بابل - السوق - المبغى - القبر المقبرة - ارم - عامورة - سدوم - الخليج - المغرب - الجزائر وهناك طبعا العديد من الاماكن التي تتكر عنده وهي عند شعراء كثر غيه كالبحر البيت أو غيرها لكنها أيضا تكتسي الدلالات التي يحملها اياها الشاعر وهذه الدلالات ليست منحصرة في معنى واحد بل هي تتجدد و تتشعب مع كل استعمال جديد لها و(طبيعي أن الرمز اذا تجمد عند معنى معين و مغزى بعينه فقد قيمته الشعرية ، ومن ثم كان دور الرمز المعني في كل قصيدة يختلف نوعا من الاختلاف عن دوره في قصيدة أخرى سواء أكانت للشاعر نفسه أم لشاعر غيره [16]وعند استخدام اللغة في الشعر استخداما رمزيا لا يكون هناك كلمة أ صلح من غيرها لكي تكون رمزا اذ المعول في ذلك على استكشاف الشاعر العلاقات الحية التي تربط الشيء بغيره من الاشياء ، فمن واجب الشاعر المعاصر اذن حين يستخدم رمزا أن يخلق السياق الخاص الذي يناسب الرمز[17]وهذا ما لاحظناه عند السياب فالمكان عنده لم ينحصر في دلالة ثابتة وانما كان ذا أهداف و غايات متجددة بتجدد القصائد، وقد نجح الى حد كبير في تفجير الطاقات الرمزية للأماكن التي اختارها عبر مسيرته الشعرية التي لم تدم طويلا الا أنها كانت حافلة بالأحداث الدرامية والمواقف الانسانية و الاهداف القومية والروح الثورية(وقد كان السياب أكثر معاصريه فطنة في تصوره لماهية الشعر ، و أشدهم اخلاصا للقناع الشعري الذي اختاره .فلقد

وهب السياب لهذه المرحلة حسا تاريخيا بهذه المرحلة التي يجتازها الشعر العربي ، مشاركا فيها سواه من أوجه الحياة العربية الحديثة في طموحه و طموحها الى التوفيق بين الاصالة والمعاصرة.[18]
وقد سعى السياب الى استغلال الفضاء المكاني وربطه بانفعالاته الذاتية و هموم الانسانية و المشاكل الحضارية و الاجتماعية بطريقة فنية فتعددت الأبعاد الدلاية للمكان في شعره فوجدنا البعد الانساني و البعد الاجتماعي و البعد القومي والبعد الثوري و البعد النفسي ولاشك أن البعد الجمالي متضمن في كل تلك الأبعاد .

6- الأبعاد الدلالية للفضاء المكاني في شعر السياب:

أولا : البعد الإنساني: الملاحظ في شعر السياب انه كان عميق النظرة الى مآسي النسان العراقي وتعميمها على الانسان بصفة عامة و وكان لا ينظر الى الظاهرة السلبية بسطحية بل يتعمق في أسبابها و جذورها ويتعاطف مع ضحايا الظروف البائسة التي أت بهم الى ذلك المصير، وكان السياب شديد النقمة على المدينة التي يرى أنها تدوس على الضعفاء و البسطاء لا سيما أصحاب القرى السذج الذين يلجؤون اليها آملين في عيش كريم فيفيقون عتى كابوس مرعب ، و(صحيح أن المدينة التي عرفها السياب ليست المدينة الحديثة التي عانى منها اليوت و بودلير غير أن ما كان يشعر به ابن القرية النائية الوديعة تجاه مجتمع المدينة وتركيبه كان يشبه الى حد كبير شعر الضياع الذي تكلم عنع اليوت وبودلير[19].
كان السياب يسعى في كل قصيدة أن يجعل من همه الشخصي المحلي هما انسانيا تختلط في ه المشاعر وتتمدد من الخصوصية إلى العموم وهذا ما لمسناه في قصيدة المومس العمياء حيث نجد الشاعر يعبر عن قسوة الحياة في المدينة ويصورها أي المدينة على أنها قاتلة للإنسانية والقصيدة عبارة عن (تاريخ حياة امرأة – شريط زماني يسترسل في داخل مخطط مكاني عريض هو حي للبغاء في مدينة عراقية – ولذلك كان هم الشاعر ان لا يعزل استرسال ذلك الشريط عن الواقع المكاني[20].
والقصة تتلخص في تعرض فلاح فقير للقتل من طرف اقطاعي بعد أن وجهت له تهمة سرقة القمح الناضج ، وتأتي الحرب و تستباح أعراض المآت من انساء العراق ، ويشاء القدر أن تكون ابنة ذلك الفلاح واحدة منهن وتدفعها الظروف الى البغاء في أحد المدن العراقية لأنها لم تجد ما يسد الرمق ،وتتصاعد الاحداث بطريقة درامية متنامية لتصور أبعاد المأساة و ليزيد السياب من مرارة الألم قرر أن تنجب الشخصية البطلة بنتا من الخطيئة الا أنها تموت هي الأخرى ثم تصل البطلة الى مرحلة الشيخوخة و تصاب بالعمى ولم تعد مرغوبة من طرف الرجال فتبيت الليالي في جوع في حين تبيت القطط و الخيول في بيوت منعمة دافئة ويسرد لنا السياب كل هذا بطريقة فنية و رغم انها ذات أحداث الا أنه لا يقع في التقريرية و المباشرة بل يصوغ ذلك كله في قالب شعري بطريقة درامية (واذا كانت الدراما قائمة في الحياة فان استكشاف هذه الدراما رهن برؤية الشاعر نفسه لأنه هو الذي قد يستكشفها و قد تند عن استبصاره ، وليس من السهل أن يتحقق الطابع

الدرامي في عمل شعري مالم تتمثل وراءه أو فيه العناصر الأساسية التي لا تتحقق الدراما بدونها وهي الانسان الصراع وتناقضات الحياة[21]

يفتتح السياب القصيدة واصفا المدينة بليلها المظلم الكئيب

كالليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينة

والعابرون الى القرارة مثل أغنية حزينة

.وتفتحت ، كأزهار الدفلى ، مصابيح الطريق ،

كعيون ميدوزا تحجر كلب بالضغينة و كأنها نذر تبشر أهل بابل بالحريق

من أي غاب جاء هذا الليل ؟ من أي الكهوف ؟

من أي وجر للذئاب؟

من أي عش في المقابر أسفع كالغراب ؟ [22]

ويستمر السياب في وصف شارع البغاء هذا ، وجوه المعتم وحالة البغايا لعدة صفحات ثم ينتقل الى سرد قصة هذه المرأة -الشخصية الرئيسية في القصة – عن طريق تذكرها لقصتها يقول على لسان المومس العمياء:

يا ذكريات علام جئت على العمى و على السهاد ؟

لا تمهليها ، فالعذاب بأن تمري في اتئاد

قصي عليها كيف مات وقد تضرج بالدماء

هو و السنابل والمساء

الى أن يقول :

ومن الملوم وتلك أقدار كتبن على الجبين ؟

حتم عليها أن تعيش بعرضها وعلى سواها

من هؤلاء البائسات .وشاء رب العالمين

ألا يكون سوى أبيها – بين آلاف – أباها

وقضى عليه بان يجوع

والقمح ينضج في الحقول من الصباح الى المساء[23]

نلاحظ كيف أن الحقل الغني بالسنابل الذي من المفترض أن يكون رمزا للخير و العطاء أصبح سببا في موت فلاح بسيط ونلا حظ عمق المفارقة

التي عبر عنها السياب عن طريق صرختها المعذبة : وقضى عليه بأن يجوع /و القمح ينضج في الحقول من الصباح الى المساء / و بأن يلص فيقتلوه ..

وتكمن المفارقة في أن يكون سبب القتل هو جوع الفلاح المسيكين في هذه الحقول العامرة بالخيرات وترمي بها الاقدار الى المدينة فتلتقي بجارة سوء

تدفعها الى طريق الانحراف ، يقول السياب :

ودون آلاف الصبايا ، بنت بائعة الرقاق ك

تلك ياسمين .
ذاك اسم جارتها الجديد ، فليتها كانت تراها
هل تستحق اسما كهذا : ياسمين و ياسمين ؟
و تزداد آلامها عنما تكبر وتفقد بصرها وتصبح عرضة للتهميش و الجوع في هذه المدينة وما يزيد مرارتها أنها تنام جاعا في حين تشبع الحشرات والحيوانات يقول الشاعر:
شبع الذباب من القمامة في المدينة ، و الخيول
سرحن من عرباتهن الى الحظائر و الحقول
والناس ناموا وهي ترقب الزناة بلا عشاء
والقارئ لهذه القصيدة لا يجد السياب يلوم هاته المومس أو حتى يعظها بل انه يوم بلده وظروفه التي قضت على الانسانية في البشر يقول صارخا معاتبا العراق :
ويح العراق أكان عدلا فيه أنك تدفعين
سهاد مقلتك الضريرة
ثمنا لملء يديك زيتا من منابعه الغزيرة [24]

يعبر السياب في هذه القصيدة عن مأساة الانسان الفقير بصفة عامة متخذا الرموز سبلا لتلك الرؤيا فالدينة رمز المال و الحضارة الزائفة التي تدوس على الفقراء و المومس العجوز العمياء رمز للذل و الاستنزاف الى أقصى الحدود والفلاح القتيل رمز لمن بذل كل حياته في خدمة الأرض ،ولم نل من كثير خيراتها ما يسد به رمقه بل وكان سبب قتله محاولته اسكات جوعه من حقول القمح الشاسعة التي خدمها العمر كله.

<u>ثانيا : البعد الاجتماعي:</u>

يستمر السياب مجليا الواقع الأليم الذي تعاني منه الطبقات الاجتماعية معتمدا على الرموز المكانية مفككا منظومة القهر و الاستبداد من جهة و ظاهرة الاستسلام و الخنوع من جهة أخرى ، ساخطا على الطبقية و التمايز الاجتماعي ،في واحدة من أكثر قصائده تأثيرا حيث جمعت بين بساطة الفكرة و براعة التصوير و عمق الرؤيا و هي قصيدة : (عرس في القرية) حيث يتخذ من فضاء القرية أو الريف دلالة على البساطة و الضعف في مقابل فضاء القصر دلالة على سلطة و سطوة المال وقدرتها حتى على شراء البشر ، حيث جعل من حاثة زواج بنت فلاحة بسيطة من رجل غني و تفضيله على فتيان قريتها الذين يحبونها حبا صادقا ومن هذه الرمزية ينطلق الشاعر ليقرر و يتهم المجتمع بالعجز وقبول الذل و التنازل عن حقوقه (وموضوع هذه القصيدة ، قصة عادية كثيرا ما كانت تحدث في الأرياف و القرى ولذلك فان اختيار السياب لهذا الموضوع يشير الى نوعية التزامه ، فهو التزام طبقي التزام بالشعب . فهو ينطلق من الواقع الشعبي من قصة عادية وحادثة متكررة في الأوساط الفقيرة وهو اختار أن يقف مع الطبقة الكادحة[25] فبالرغم من أن آل السياب كانوا يعدون من كبار ذوي الأملاك و بالرغم من أن بدرا كان يعرف ذلك لكنه لم يشهد هذا المجد

القديم وكان لذلك يميل بشعوره نحو الانتماء الى طبقة الفلاحين بالرغم أنه لم يكن يوما فلاحا عاملا في الرض و الذي كان يشده لهذه الطبقة هو شعوره بالحرمان[26]

و السياب في هذه القصيدة انطلق من الواقع الريفي لا لمجرد الوصف او التقرير بل ليحيل هذه الحادثة ال رمز له أبعاده العميقة و المتشعبة و لعل هذا ما أرده أدونيس أشار الى الخصوصية الشعرية حين يقول (ان الشعر الوظيفي هو الذي ينظر الى الحدث بوصفه موضوعا خارجيا فينقله تمجيدا أو تقبيحا ، وهو يقوم بوظيف يمكن أن يؤديها الكلام الاعلامي بحصر المعنىأولأي نوع آخر من الكلام الخباري التحليلي اما الخصوصية الشعرية فمن طبيعتها ان تحيل الحدث الى رمز بحيث لا تردنا الى الحدث كما هو وانما تردنا الى دلالته أو أبعاده في الحركية التاريخية ناقلة خيالنا وحواسنا في أفق جمالي تخييلي قوامه اللغة و علاقاتها [27] فالشعر بهذا لا يقف عند مجال بعينه كالواقع مثلا لأنه يتجاوزه الى الممكن و يتجاوز الماضي الى الحاضر و الحاضر الى المستقبل وهو يتشكل من خلال تردده على الماو المختلفة. لهذا تبطل تسمية الشعر بالسياسي أو الجتماعي أو الوطني أو الفلسفي أو العاطفي فالشعر شمولي وهو اما أن يكون شعرا أو لا يكون . انه عالم خاص له مخلوقاته و فضاؤه ولا يتحدد بواقعيته او لا واقعيته انما بفنيته . ان للشعر واقعية خيالية أو واقعية شعرية بتعبير أدق و متميز عن المعنى العام للواقعية[28] وفي قصيدة عرس في بقرية ينطلق السياب مما هو كائن راغبا بالحصول على ما يجب ان يكون ، ساخرا من واقع ذليل راغبا بثورة تقتلع جذور الذل و الهوان يفتتح السياب القصيدة واصفا نهاية النهار و اقتراب وقت العرس المنتظر:

مثلما تنفض الرح ذر النضار
عن جناح الفراية ، مات النهار.
النهار الطويل.
فاحصدوا يا رفاقي فلم يبق الا القليل
كان نقر الدرابك منذ الأصيل
يتساقط مثل الثمار،
من ريح تهوم بين النخيل ،
يتساقط مثل الدموع
او كمثل الشرار
انها ليلة العرس بعد انتظار

نلاحظ كيف أن السياب نقل لنا هذا الاحساس بالكآبة والجو الباهت للعرس ، الذي من المفترض أن يكون جوه بهيجا و زاهيا ثم يبدأ في توضيح المسألة شيئا فشيئا ليصل في النهاية الى صلب الموضوع في نهاية القصيدة ، وبعد أن فرغ من الصف التمهيدي لأجواء العرس يصل بنا الى ما سيحدث و سببه قائلا :

يا رفاقي

سترنو الينا نوار
من عل في احتقار
زهدتها بنا حفنة من نضار:
خاتم أو سوار و قصر مشيد من عظام العبيد ..
وهي يارب من هؤلاء العبيد
ولو أننا و آباأنا الاولين
قد كدحنا طوال السنين و ادخرنا على جوع اطفالنا الجائعين
ما اكتسبناه في كدنا من نقود
ما اشترينا لها خاتما او سوار
خاتم ضم في ماسه الازرق
من رفات الضحايا مئات اللحود[29]

ونور هو اسم العروس و التي ترمز الى كل ما جميل ورمز لان الخيرات تذهب الى الغربيذاء في حين أن من لهم الحقوق يهمشون وهذ ا ما نلمسه في قوله لنور منكرا عليها قبولهل بهذا الزواج :

هل تصيرن للأجنبي الدخيل
للذي لا تكادين تعرفيه
يا ابنة الريف ، لم تنصفيه
كم فتى من بنيه
كان أولى بأن تعشقيه [30]

و ينتقل السياب في الأخير الى تصوير أقصى مظاهر الذل و الهوان عن طريق جلد الذات بطريقة ساخرة حين يقرر الذهاب للعرس و التظاهر بالفرح و قبول الواقع على ما هو عليه ، قيقول

أوقد القصر اضواءه الأربعين
فاتبعوني الها مع الرائحين
أتركوني أغني أمام العريس
و أراقص ظلي كرد سجين
وأمثل دور محب تعيس
ضاحكا من جراحات قلبي الحزين[31]

والسياب في اختاره فضاء القرية يعانق مشكلة الحضارة المادية التي تقتل الطهر المتمثل بترك الفتاة طبقتها وتخليها عن بيئتها مقابل المال ، بل وأبعد من هذا فنوار رمز لكل ما هو جميل اذن فالتمتع بالجمال هو حكر على الأغنياء دون الفقراء وقد نذهب الى أعمق من هذا وهو ذهاب خيرات البلاد الى طبقات معينة في حين تبقى الطبقات العاملة طيلة حياتها في البلاد محرومة من خيراتها.

ثالثا: البعد النفسي :

لقد مر السياب طيلة حياته بتجارب أليمة كان لها من دون شك تأثير في نتاجه الشعري كما كان لها دور في بلورة رموزه الشعرية و صبغ لغته الشعرية بطابع خاص (فبداية اليتم المبكر و فقدان حنان الأم مرورا بدمامته الواضحة ، ثم تجاربه الرومنسية بعيدا عن الحب الحقيقي ، وتجاربه السياسية و تعرضه للاعتقال و الفصل من العمل مع ما يرافق ذلك من ضيق و خنق و خوف ثم المطاردة و الهروب من العراق وعيش حياة المنفى في ايران و الكويت بعد ذلك[32] وكل هذه الظروف أدت الى شعور عميق بالاغتراب لدى السياب (وعلى الرغم من شيوع مفهوم الاغتراب النفسي فانه من الصعب تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي وذلك نظرا لتداخل الجانب النفسي للاغتراب و ارتباطه بجميع ابعاد الاغتراب الأخرى الثقافي و الاقتصادي و السياسي [33]

واننا لا نبالغ اذا قلنا أن السياب عاش جميع أنواع الاغتراب نظرا للظروف التي ذكرناها سابقا وق كان للحضور المكاني دور هام في التعبير عن الاجواء النفسية للشاعر سواء ما تعلق منها بالاغتراب أو ما كان يتعلق بالحنين ، ذلك الحنين الخفي الذي لم يفارق السياب في جميع مراحله الشعرية

وقد كانت جيكور قرية السياب التي ولد وعاش بها رمزا مكانيا بارزا في شعره و مرافقا دائما بل و تكاد تكون الوجه الاخر للسياب او رمزاه هو في حد ذاته فهي أفراحه وهي حياته و موته (وربما ظل رمز جيكور أروع ما خلفه السياب من رموز لأنه من نتاج ذلك الحنين السري المكنون للتعامل مع المستحيل لم يفارقه قط ، فقد عاش السياب تجربة المنفى كغيره من الشعراء الرواد وعرف آثاره المدمرة للنفس لكن تجربة الفقد و ما تولده من شعور بالحنين و الشوق كانت حافزا كبيرا للإبداع حيث أن الاقتلاع القسري من المكان لا يحدث في الواقع موتا لفكرة الوطن وانما تظل الفكرة قادرة على النمو في الغربة ، فالشعراء يعيشون وطنا لغويا يبنونه في ديوان أو قصيدة شعر [34]

لقد كانت جيكور فسحة الأمل التي يلجأ اليها السياب بذرياته و يشكو اليها آهاته و لم يخلو ديوان له من ذكرها أو الاشارة اليها أو الى معالمها كنهرها أو حقولها أو جوها وغيرها من التفاصيل التي يتعمد أن يرسخها في ذاكرته قبل شعره ، و التفحص لشعر السياب جد أن جيكور كانت معادلا موضوعيا له و لتقلباته النفسية . يقول في قصيد جيكور أمي :

تلك أمي ، وان أجئها كسيحا
لاثما أزهارها و الماء فيها والترابا

ثم يقول في مقطع آخر :

هيهات ...انها جيكور :
جنة كان فيها الصبى وضاعت حين ضاعا
...آه لو أن السنين الخضر عادت أ يوم كنا
لم نزل بعد فتيين لقبلت ثلاثا أو رباعا

وجنتي هالة و الشعر الذي نشر أمواج الظلام
في سيول من العطور التي تحمل نفسي الى بحار عميقة
ولقبلت ، برغم الموت ثغرا من وفيقة و لأوصلتك يا اقبال في ليلة رعد و رياح و قتام
وعد كل تلك الأمنيات يختم السياب بصرخة يائسة ملؤها الالم و التحسر:
آه.. لكن الصبي ولى ضاع
الصبى والزمان لن يرجعا بعد فقري يل ذكريات ونامي

و الجي هنا أن علاقة السياب بجيكور تتعدى شعوره بالحنين للمكان الى الحنين الى نقاء الطفولة الى قوة الجسد و صحته والى علاقته بالجنس الآخر و الى كل ما هو جميل .

أما عن شعوره بالاغتراب فقد شكل الفضاء المكاني أيقونة مشعة محملة بهذا الشعور بالضياع النفسي و الوحدة القا تلة ومن الأمكنة التي كانت على صلة وثيقة بكل تلك الأحاسيس : (السوق القديم) وهي قصيدة من اشهر قصائده التي عبر فيها عن اغترابه وضياعه في المدينة حتى وان كان داخل بلده العراق .

يقول في مستهل القصيدة :

اليل و اسوق القديم
خفتت به الاصوات الا غمغمات العابرين
و النور مقصده المصابيح الحزانى في شحوب
مثل الضباب على الطريق
من كل حانوت عتيق بين الوجوه الشاحبات كانه نغم يذوب
في ذلك السوق القديم
إلى أن يقول : (أنا من تريد فأين تمضي ؟ فيم تضرب في القفار
مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة ، كنت منك على انتظار
أنا من تريد ..) وقبلتني ثم قالت – والدموع في مقلتيها – (غير أنك لن تر حلم الشباب
بيتا على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني ، وهي تعلو نصف وسنى والشموع
تلقي الضياء من النوافذ في ارتخاء ، في ارتخاء
أنا من تريد ، وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل :
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل
لا يأس فيه ولا رجاء [35]

فقد اتخذ السياب من السوق القديم فضاء لتجسيد ضياعه وتأرجحه بين اليأس والأمل بين الحب واللا حب وبين الاستقرار وللاستقرار فكل هذا شكل لديه إحساسا عميقا بالاغتراب عن كل ما حوله ، كما نلمس الضعف والانهيار النفسي وعدم التكيف مع هذا الواقع المكاني الجديد أي في هذا السوق في تلك المدينة وهذ ا هو عين الاغتراب النفسي فمن إحدى مفاهيم الاغتراب : حالات

عدم التكيف التي تعانيها الشخصية من عدم الثقة بالنفس ، والمخاوف المرضية والقلق والرهاب الاجتماعي ، غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في الشخصية وضعف الإحساس بالأمن .
وإذا كان هذا حال السياب في بلده العراق فالحال وهو خارجها أدهى وأمر ، فقد زاد من اغترابه الحاد غربته المكانية " فبعد كل النضال و الالتزام انتهى به المطاف مطاردا في إيران ثم الكويت يكابد الغربتين النفسية والمكانية ، فهو في بلاد غريبة عنه وقلبه معلق بشعبه المقهور ووطنه المنهوب وهذا ما خلف لنا قصيدة رائعة هي قصيدة غريب على الخليج [36] التي بث فيها السياب كما من مشاعر الأسى والحنين فكان اختياره للفضاء المكاني مقترنا بالغربة عميق الأثر حيث صور لنا مظهر الإنسان وحالته النفسية خارج وطنه حيث يقول :

الريح تلهث بالهجيرة ، كالجثام على الأصيل
وعلى القلوع تظل تطوى أو تنشر للرحيل
زحم الخليج بهن مكتدحون جوابوا بحار
من كل حاف نصف عار
وعلى الرمال على الخليج
جلس الغريب يسرح البصر المحير في الخليج
ويهد أعمدة الضياء بما يصعد من نشيج
أعلى من الهباب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى : عراق [37]

والسياب هنا نقل همه الشخصي الى هم كل مغترب يعاني مثل ما يعانيه هو من غربة نفسية و اجتماعية فيرتقي بمستوى تجربته الخاصة الى مستوى التجربة الانسانية العامة فهو لا يعبر عن تجربة خاصة بمعزل عن غيره و انما يعممها على المستوى الانساني فالقصيدة خلق لا تعبير عن مشاعر شخصية أو تصوير لعالم الشاعر ولكنها وعي للوجود الانساني وعي النبوة [38] فالشاعر يسمو على ذاته العادية ليقول ما توحيه الذات العليا الذات المبدعة ومن ثم فالشعر ذو طبيعة مغايرة للطبيعة النفسية العادية . فهو خلق يتجاوز الظاهر الى الباطن الذاتي الى الانساني [39] فالشعر فن يخلق عالمه الخاص من جوهر الانسان.

يقول السياب في صرخة ملؤها الحنين و الشوق الجارف و الوحدة القاتلة ،معبرا عن آلاف النماذج من أولئك الذين هجروا و نفوا عن أوطانهم:

يا ريح يا ابرا تخيط لي الشارع متى أعود
الى العراق متى أعود
يا لمعة الأمواج رنحهن مجذاف يرود
بي الخليج ، و يا كواكبه الكبيرة ..يا نقود
ليت السفائن لا تقاضي راكبيها عن سفار
أو ليت أن الارض كالأفق العريض ، بلا بحار

ما زلت أحسب يا نقود ، أعدكن و أستزيد
ما زلت أنقص يا نقود بكن من مدد اغترابي
ما زلت اوقد بالتماعكن نافذتي و بابي
في الضفة الأخرى هناك، فحدثيني يا نقود
متى أعود متى أعود[40]

ويبدو هنا الوجه الآخر لمشكلة الاغتراب النفسي و الاجتماعي و هي عدم توفر المال الكافي للعودة وكيف يجمع مالا للعودة وهو بالكاد يستطيع توفير قوت يومه و هو في هذا يصور معاناة المغتربين عن أوطانهم و اوضاعهم المزرية يقول في ختام القصيدة :

وا حسرتاه فلن أعود الى العراق
وهل يعود
من كان تعوزه النقود ، وكيف تدخر النقود
وأنت تأمل اذ تجوع ، و أنت تنفق ما يجور
به الكرامعلى الطعام
لتبكين على العراق فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك، دون جدوى للريح و للقلوح[41]

يلمس القارئ في هذه لقصيدة أ كثر من مجرد حنين الى الوطن و البكاء على فراقه بقدر ما هو بكاء على مصير الانسان العربي في الغربة.

رابعا : البعد القومي:

كان الشعراء الرواد على وعي تام بالأخطار التي تحدق بالأمة العربية(فقد تعرضت هذه الأخيرة لمحاولة بتمزيق و طمس الهوية ومحاولات القوى الاستعمارية القضاء على شخصيتها وقومتها و في ظل هذه الظروف عاش شعراء لمرحلة الاولى ، وحاولوا أن يشحذوا عريمة هذه الأمة [42] وقد كان لكل منهم طرائقه الخاصة ، ومن اهم قصائد السياب ذات البعد القومي هي قصيدة (في المغرب العربي) ، وهي قصيدة في نطاق الالتزام القومي العربي وقد نظمها السياب عام 1956 ونشرها في مجلة آداب في عدد آذار من العام نفسه وفيها تجاوب حي عميق بين الشاعر و الانتفاضات العربية التحررية في شمالي افريقيا في تونس و الجزائر و المغرب وفي كل بقعة عربية أخرى فضلا عن تجاوبه مع الفكر القومي العربي[43] وقد كان للفضاء المكاني دلالات فنية أكسبت القصيدة جاذبية و ضبابية تغري المتلقي بإزالتها للوصول الى المغزى من وراء توظيفها (فنحن في الشعر لسنا ازاء ألفاظ دقيقة ، انما نحن ازاء رموز تعبر عما تختلج به عند الشعراء نجد لها مدلولات خاصة و متغيرة حسب الزمان و المكان والسياق[44] والأماكن الحاضرة في القصيدة بدأ من العنوان هي : المغرب مئذنة مآذن مقبرة قبور الكعبة يثرب واد جبال الريف بقايا دار الشام مكة باريس وهي طبعا أماكن ليست مرادة لذاتها وانما هي رموز تحيل الى دلالات ايحائية تتراوح بين الوضوح و

الخفاء و الإيعاز و الايحاء وذلك ليس غريبا على الشعر المعاصر (ففي كلمات الشعر سحر وفيها خفاء وفيها الغاز وهذا كله يجعلها غير محددة الدلالة بل يجعلها غير محددة الدلالة بل يجعل دلالتها تقبل احتمالات كثيرة فكل يتصورها حسب حالته الوجدانية و حسب ما يستطيع أن يستنبط منها و حسب ما تثيره أصداؤها في نفسه وحسب ما تبعثه فيه من عواطف ومشاعر.[45]

والفضاء المكاني في القصيدة شكرا بؤرا دلالية مشعة ومتشابكة الدلالة رغم أنها لا تجمعها ظاهريا علاقة منطقية واضحة لكن الشاعر بخياله الخلاق استطاع ايجاد روابط تجمعها داخل القصيدة وهي تتراوح بين الأماكن ذات الدلالة الايجابية والدلالة السلبية لكنها تتضافر لتؤدي الفكرة القومية الواحدة.

وبالعودة الى القصيدة نجد:

المكان	دلالته
القبر ا لمقبرة ا لقبور	دلالة على موت الأمة
المأذنة / الكعبة	دلالة على المجد المنسي
الوديان	رمز الثورة النائمة التي تحتاج إلى من يحركها
جبال الريف	ترمز إلى شموخ الثورة الشعبية التي انطلقت من أبناء الشعب
باريس	رمز الفساد في الأرض
يثرب	الأمل بالصحوة

يقول السياب في المقطع الأول من القصيدة :

قرأت اسمي على صخرة
هنا في وحشة الصحراء
على آجرة حمراء
على قبر.. فكيف يحس إنسان يرى قبره
يراه وإنه ليحار فيه ..
أ حي هو أم ميت ؟ فما يكفيه
أن يرى ظلا له على الرمال
كمأذنة معفرة
كمجد زال
كمأذنة تردد فيها اسم الله
وخط اسم له فيها

وكان محمد نقشا على آجرة خضراء
يزهو في أعاليها
فأمسى تأكل الغبراء
والنيران من معناه[46]

واضح أن السياب في هذا المقطع يلوم الأمة بل و ينبهها إلى خطر تهاونها عن التمسكن بقيمها ودينها وتراثها .

وفي مقطع آخر يستغل دلالة الوديان للتحريض على الثورة .

وكان يطوف من جد مع المد
هتاف يملأ الشطآن : {يا وديانا ثوري !
ويا هذا الدم الباقي على الأجيال
يا إرث الجماهير
تنشط الآن واسحق هذه الأغلال
وكالزلزال
هز النير أو فاسحقه واسحقه مع النير }

لقد انطلق السياب من التحذير والإشارة إلى تناسي ماضي الأمة المشرق وتساؤله عما إذا كانت ما تزال حية أم هي ميتة حين قال

يراه وإنه ليحار فيه – أحي هو أم ميت ... ثم يبدأ في بث الروح الثورية دون أن ينسى النيل من العدو وتحطيم صورته وذلك عبر رمز باريس التي قصد بها مهاجمة القوى الاستعمارية آنذاك وذلك في قوله :

وفي باريس تتخذ البغايا
وسائدهن من ألم المسيح
وبات العقم يزرع في حشاها
فم التنين : يشهق بالفحيح
ويقذف من حديد في حمانا
جحافل كالفوارس ، دون روح
تجد وراء مكة في الصياصي
أقمناها ويثرب في السفوح [47]

والحقيقة أن القصيد ةما تزال مكتنزة بالدلالات الفريدة والقيمة وهي (في جميع الأحوال قصيدة مميزة تشكل علامة فارقة في مسيرة السياب الإبداعية نظرا لما اتسمت به من بناء متوازن متماسك إلى حد بعيد وهي تتناول نضال العرب في الجزائر من أجل استقلالهم وتحررهم ونهضتهم معبرة عن الالتزام السياسي القومي في مسيرة الشاعر الفكرية والإبداعية) [48]

خاتمة:

وفي الأخير فإن السياب عاش حياة قصيرة إلا أنه استطاع أن يشكل تيارا جديدا في الشعر العربي و استطاع أن يعطي للشعر العربي روحا جديدة مجددا في الشكل و المضمون ، وقد استطاع السياب استنطاق المكان وتفجيره بالدلالات المشعة رابطا اياها بأبعاد سامية سمو شاعريته ، فقد خلد اسم جيكور قريته النائية البسيطة الوديعة من خلال أشعاره وليس ذلك من خلال مجرد الوصف أو التغني بجمالها و هوائها و حقولها وإنما كانت معادلا موضوعيا أو توأما روحيا له ، كما أنه استطاع ربط العديد من الدلالات ذات الأبعاد النفسية و الاجتماعية و النفسية و القومية بالفضاء المكاني فكانت الغربة الاجتماعية في السوق القديم و كان غياب معاني الإنسانية في المدينة في قصيدة المومس العمياء وكان الحنين والشوق الى عالم النقاء و الصفو في جيكور أمي وكانت الدعوى الى التحرر و إحياء الروح القومية في قصيدة في المغرب العربي و كان نبذ الطبقية و التمايز الاجتماعي في قصيد عرس في القرية ، وقد جعل السياب من الفضاء المكاني منطلقا للتعبير عن رؤاه و ترجمة أحاسيسه وربطها بالواقع الذي عاشه العراق ، فعاش معاناة شعب يعيش مخاض الحرية شعب كانت مآسيه هي مأساة السياب الشخصية فقد عرف معنى الجوع و المرض وعرف الاضطهاد والملاحقة ، موسعا نطاق أفقه الى العالم العربي منطلقا نحو الهموم الانسانية .

الهوامش:

[1] - المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق بيروت،ط43 ،2008 ص 771 .

[2] - باريس فوغالي ، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع الأردن أربد ط 1، 2008،ص186.

[3]- حسن مجيد العبيدي ،نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ،مراجعة عبد الأمير الأعسم ،ط1 ،دار الشؤون الثقافية ،العامة ،بغداد ،1987 ص19 .

[4] - ابراهيم جنداري ، الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا ، ط 1 ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، 2001، ص 168

[5] - علي بن محمد الجرجاني ، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان بيروت ، 1985، ص 344-345.

[6] - أحمد ملحم ابراهيم، شعرية المكان (قراءة في شعر مانع سعيد العتيبة) عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع الأردن،ط1 2011، ص08.

[7] - منى شفيق جاسم ، فاعلية المكان في الصورة الشعرية ، سيفيات المتنبي نموذجا ، مجلة ديالي العراق ، العدد 40 ، ص04 .

[8] - أبو زريق ، المكان في الفن ، وزارة الثقافة عمان الأردن دت ، دط ، ص155

[9] - عبد العزيز الشمري ، الزمن والمكان (نظرية وتطبيق) ، مؤسسة اليمان 1999 ،ص155 .

[10] -علي ديبو ، الالتزام في شعر السياب ،بيروت لبنان دت ، دط ، ص199

[11] - هاني الخير ، موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث ، دار فليتس للنشر ، الجزائر ، دت ، دط ، ص 27 .

[12] - السابق ، ص 28

[13] - السابق ، ص 28-29 .

[14] - امل ديبو ، الالتزام في شعر السياب ص 109

[15] - د نجود هاشم الربيعي ، تطور دلالة المكان في الشعر العربي الحديث

[16] -عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية ص 120.

[17] - المرجع السابق

[18] -هاني الخير ، موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث ص25.

[19] -امل ديبو الالتزام في شعر السياب ص 197

[20] - -د احسان عباس ، بدر شاكر السياب (دراسة في حياته و شعره) ،مكتبة الفكر الجديد ص 143.

[21] - د احسان عباس ،الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية ص283 بتصرف.

[22] - ديوان أنشودة المطر ، مؤسسة هنداوي للتعليم و لثقافة ص 145

[23] السابق ص153

[24] السابق174

[25] - أمل ديبو اللتزام في شعر السياب ص 199

[26] - السابق ص 197

[27] - أدونيس سياسة الشعر ص 177

[28] - حسن غزالة ، الأسلوبية و التأويل و التعليم ، كتاب الرياض مؤسسة اليمامة الصحفية الرياض 1998 ص 19

[29] الأعمال الكاملة دار العودة بيرةت مج 1ص 29

[30] السابق ص 32

[31] السابق ص 34

[32] - خالد فياض الشرفات ، المؤثرات الاجتماعية نشوء الشعر الحر (بدر شاكر السياب نموذجا) مجلة دراسات ، المجلد 45 العدد 4 ، ملحق 1 ، 2018 ص 417

[33] - عبد الله جوزة ، اشكالية الاغتراب في الفكر العربي والغربي ، مجلة الباحث ، جامعة الاغواط العدد التاسع أفريل 2012

[34] - اعتدال عثمان ، اضاءة النص (قراءات في الشعر العربي الحديث) الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998 ص 08.

[35] - ينظر: آمنة بلعلى ، أبجدية القراءة النقدية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1995 ، ص 53-54

[36] ديوان شناشيل ابنة ال الجبلي مؤسسة هنداوي للتعليم و اثفافة ص 51

[37] السابق والصفحة نفسها

[38] يوسف الخال دفاتر الأيام45

[39] السابق ص 46

[40] ديوان شناشيل ابنة الجبلي 58

[41] السابق ص 59

[42] علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ص 39

[43] أحمد أبو حاقة الالتزام في الشعر لعربي ،ص432

[44] د شوقي ضيف ن في النقد الأدبي مكتبة الدراسات االادبية ص 130 (بتصرف)

[45] السابق ص 132

[46] ديوان انشودة المطر ص 61

[47] السابق ص 69

[48] - عيسى بلاطة ، بدر شاكر السياب حياته وشعرة ، ص 89 بتصرف